بين دورا الخليل وبيت المقدس

يوميات موظف انتدابي

كمبرلي كاتز

في المشهد الثقافي والأدبي الفلسطيني هناك ارتفاع في منسوب نشر المذكرات والكتب التي توثق للذاكرة الجمعية ومقالات الصورة [١]، وهذه كلها أنواع أدبية كتابية جامعها أنها تحفظ، من ضمن ما تحفظ، عنديات الأفراد عن الماضي. يضاف إلى هذه الأنواع التي توثق لذاكرة الأفراد عن الماضي نوع آخر هو اليوميات، وهذا النوع الأخير يوفر للمتلقي فرصة فريدة للإطلال على حياة الشخوص من خلال التعرف على قصصهم الشخصية من ناحية، ومن خلال الوقوف على منظورهم ومواقفهم من قضايا بعينها في فترة تاريخية محددة من ناحية أخرى.

تنتج اليوميات، في الغالب، من قبل أفراد ينتمون إلى الراق الأعلى في مجتمعاتهم وعلى جانب من الثقافة. لهؤلاء، لا يخفى، تتوفر الإمكانات ويتوفر الوقت وتتوفر، بالتالي، بحبوحة تسجيل اليوميات على الورق. من أمثلة ذلك في الحالة الفلسطينية خليل السكاكيني في يومياته «كذا أنا يا دنيا» وابنته هالة السكاكيني في يومياتها Jerusalem and I. [٢] نجد، بالمقابل، أن الناس في الراق الأدنى من المجتمعات نحو العمال والمزارعين ووصولا إلى الموظفين في أدنى السلم الوظيفي، من أمثال سامي عمرو التي تعالج هذه الدراسة يومياته، نجدهم لا يتركون لنا، في العادة، شيئا نركن إليه لكيما نفهم حيواتهم ونفهم الطريقة التي عاشوا فيها والكيفية التي كانوا ينظرون بها إلى العالم المحيط بهم. إن انعدام يوميات هؤلاء لا يوفر، بالضرورة، فرصا لمقاربات ناقدة محللة تمكّن الدارسين من فهم الدور الذي لعبه المهمشون في تاريخ مجتمعاتهم وتطوّرها. مع أن عددا ملحوظا من مختلف أنواع الكتب ومن الأفلام قد صدر، في مسعى المجتمعات نحو التذكر والتوثيق وحفظ التاريخ، تبقى اليوميات، كنوع كتابي ينتج في أزمنة وأمكنة بعينها، قادرة على توفير فرص فريدة للفهم وللنفاذ إلى أفكارٍ وعواطفَ خَبِرها أفراد عاشوا سلسلةَ أحداثِ فترةٍ

١ مقالة الصورة هي مجموعة/سلسلة متعاقبة من الصور تحكي قصة ما لغرض التواصل مع جمهور مفترض. قد يدعم سلسلة الصور في هذه المقالة نص مكتوب لكن ذلك ليس شرطا أساسيا من شروط هذه المقالة. المترجم.

٢ أن تكتب حلا السكاكيني مذكراتها باللغة الإنجليزية يقول شيئا كثيرا عن الراق الاجتماعي الذي كانت تنتمي إليه وعن ثقافة هذه الراق. المترجم

تاريخية معينة.

إلى جانب أهميتها كوثائق تاريخية، لا تقصّر اليوميات، حين يعمد إلى دراستها وتحليلها، في إثارة السؤال التالي: لماذا يُقدم الأفراد ويحمّلون أنفسهم عناء كتابة أفكارهم ومشاهداتهم على شكل يوميات؟ ما هو سر الألق في اليومي حتى يغري أصحابه بملاءمته للتوثيق؟ ومن هو المخاطب المفترض لهذا الذي يقومون بتوثيقه؟ كتب البعض عن اليوميات بأنها «نوع خفيض القيمة» لكونها توثق «للعادي» و«الهامشي»، ولكونها مرتبطة ومتأصلة في بعدها عن الموضوعية؛ ذلك لأن الأنا تظل في جوهر اليوميات وفي مركز التبئير (شو تعني) منها.[٣] لقد أثار هؤلاء جملةً من تساؤلات تتمحور حول كيفية تصنيف ، إن كان ذلك ممكنا أصلا، هذا النوع الكتابي، وهل يدخل هذا النوع، ونحن نعاين حين مقاربته تقاطع طرق الأنا والآخر، في باب الأدبي أم يدخل في باب التاريخي؟

في مقدمتهما لكتاب يضم يوميات في التاريخ والأدب الأوروبيين، يقول المحرران (ريتشل لانجفورد ورسل وست):

> لا تزال اليوميات، باعتبارها نوعا غير محدد ومراوح بين الكتابة الأدبية والكتابة التاريخية، بين تلقائية الريبورتاج وحِرَفيةِ وتأمليةِ النص المكتوب، بين الأنا وبين الأحداث البرانية، بين الذاتي والموضوعي، بين الخاص والعام، لا تزال تضفي نوعا من بلبلة على محاولات تأطير علاماتها الفارقة ضمن حدود شكلانية متفق عليها.[٤]

يجب أن نقر، والحال، بأن اليوميات، وإن نظر إليها في أحيان بأنها نوع كتابي هامشي، هي في الحقيقة نوع كتابي مركب ولا يخلو من تعقيد.

عندما تقارب اليوميات باعتبارها نصا تاريخيا نجد الدارس واقعا تحت إملاءات فضوله التاريخي المسائل، ولا يقبل أن يقارب اليوميات وكأنها وسيلة مسطحة لاستعادة التاريخ في الذاكرة ليس إلا. وعليه حريّ أن تقرأ اليوميات باعتبارها «نفاذا لحظيا سريعا» ولمحة تاريخ كما اختبر من قبل من كان في محرق الحدث، [أو] من كان يكتب لحظة وقوع الحدث.»[٥] لا يفترض، والحال، في الذين يكتبون يومياتهم أن ينظروا إلى إنتاجهم نظرة فاحصة محللة، ذلك لأنهم لا ينعمون بالمسافات الفاصلة بين زمن كتابتهم وزمن وقوع الحدث الذي يكتبون عنه. مع ذلك، لا ينبغي أن يفهم من هذا أن الأحداث التاريخية التي توثق لها اليوميات هي أحداث تفتقر للمصداقية أو غير جديرة بأن يعتمد عليها بالضرورة؛ فكاتب اليوميات إنسان غير غريب وغير بعيد عن الحدث التاريخي الذي يكتب عنه، كما هو القارئ الذي يقارب النص بعد حين من زمن الكتابة. لا شك أن

٣ لمزيد من المعلومات حول هذه الفكرة أنظر:
Rachel Langford and Russell West. Marginal Voices, Marginal Forms: Diaries in European Literature and History. Amesterdam, Atlanta, Ga:Rodopi, 1999, p.7.

٤ نفس المصدر، ص.٨

٥ نفس المصدر، ص.١٢

لليوميات دقة تاريخية، ولها القدرة على توفير فرص لفهم المجتمعات من زوايا مختلفة، اجتماعية اقتصادية أو دينية، ولها القدرة على توفير فرص للفهم، أيا كانت، يقدمها إنسان، كاتب اليوميات هنا، يتمتع بقدر من الثقافة.[٦]

هذه المقالة يوميات الشاب الفلسطيني سامي عمرو الذي نشأ في زمن الانتداب البريطاني لفلسطين. كتب سامي يومياته، وإن بشكل متقطع، خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، وفيها يتناول أحداثا تراوح بين المغرق في الخصوصية والمغرق في العمومية والعالمية. تدخل هذه المقالة، بعنوانها الذي يتسم بميسم الثنائية، إلى عالم يوميات سامي من ناحيتين متممتين لبعضهما البعض: الأولى قراءة في الكيفية التي أعرب بها سامي عن وجهات نظره في حياته منذ مستهل اليوميات، والثانية في الكيفية التي قاربت بها الدراسات النقدية اليوميات كنوع كتابي ثم طرائق استثمار ذلك في فهم اليوميات التي بين أيدينا.

تكشف اليوميات، بصراحة جريئة، تفاصيل حياة هذا الشاب من بلدة الخليل، وهي حياة تتحداها بيئة اجتماعية محافظة وفي وقت يشهد تغيرات كبيرة هو وقت الانتداب البريطاني في فلسطين. حين تقرأ يوميات سامي يستوقفك في الحال إلى أي مدى أحب سامي عائلته وبلدته، ويستوقفك، بشكل مواز، شعوره بقيود المجتمع الذي عاش فيه وببنية العائلة في هكذا مجتمع. كتب سامي في يومياته، كذلك، عن طموحاته الوظيفية دون أن يتضارب ذلك مع وعيه الفطن بأن تحصيله العلمي المحدود يحد من إمكانات تقدمه إلى الأمام. في هذه اليوميات بَسْطٌ لصعود الطموحات والآمال وهبوطها، للحب ولانكسارات القلب، لفرص العمل ولما يعتريها من صعوبات، لعلاقة سامي مع الجيران والعائلة والأصدقاء. كل ذلك يصير التعبير عنه في زمن أحداث الحرب العالمية الثانية وحراك سيناريوهات العلاقة في فلسطين بين العرب واليهود في السنوات القليلة القادمة بعد الحرب.

تعكس الثنائية المضمنة في عنوان هذه المقالة، كذلك، تباين الطرائق التي تقارب فيها اليوميات حين التعرّض للسؤال التالي: «لماذا يكتب فرد يومياته؟» الإجابات على السؤال موزّعة توزّع عنوان المقالة: عند البعض هي رغبة من قبل كاتب اليوميات لكيما يفهم الذات بشكل أفضل ويحقق، بالتالي، فهما أفضل للآخر. وعند البعض الآخر هي رغبة من يكتبون اليوميات في نشر أفكارهم والكيفية التي ينظرون فيها إلى العالم بشكل عام وإلى العالم المحيط بهم ثم التأثير في متلقّين مفترضين. قد يكون من المرجح أن آخرين يكتبون يومياتهم لأنهم يرون فيها وسيلة للتنفيس أو وسيلة للتعامل مع مشكلاتهم سواء أكانت شخصية أو عائلية أو ذات علاقة بالعمل. في مقالته التي تحمل عنوان «في مزاولة كتابة اليوميات: مقاربة تاريخية بين الأعوام ١٩٨٦–١٩٩٨»، والتي يطالع فيها خبرته الشخصية في كتابة اليوميات وخبرات عيّنة من أناس كتبوا يومياتهم، يحاول (فيليب لوجوين) أن يبرهن أن فعل «كتابة اليوميات هو فعل ملازم لحالات عصيبة يفقد فيها الفرد بوصلة التوجيه. [فعل كتابة اليوميات] هو شكل كتابي مغرق في آنيته، والأسى من علاماته الفارقة.»[٧]

٦ نفس المصدر.

٧ انظر في نفس المصدر مقالة:
Philippe Lejeune. «The Practice of Private Journal: Chronicle of an Investigation (1986 – 1998),» pp. 185-187.

تبدأ يوميات سامي بالعنوان التالي « معركة الحياة » والمدخل الأول في سلسلة اليوميات تتصدره جملة « بدأ النضال » لتخلق هذه الجملة، بالتالي، تصورا واضحا لدى المتلقي عن سؤال « اللماذا »، أي لماذا كتب سامي يومياته(؟).[٨] كثير من الذي كتبه سامي في يومياته هو تعبير عن جملة تحديات كانت تتخلق بدفع من ظروف حياتية يمر بها، منها ما هو شخصي ومنها ما له علاقة بالعمل ومنها ما له علاقة بالحياة تحت حكومة الانتداب البريطاني.[٩]

تُعيّن فترةُ حكومة الانتداب مرورَ فلسطين بجملة تغيرات جذرية، ذلك لأن الأهالي شهدوا، ولأول مرة منذ فترة انتهاء الحملات الصليبية على المنطقة، وصولَ أوروبيين مسيحيين سيطروا على البلد بقوة السلاح. لقد وفرت الحرب العالمية الأولى الظروف المواتية جدا لهكذا وصول، ذلك لأن دولا من مختلف أنحاء المعمورة أقحمت في الحرب للحفاظ على مصالحها في عصر الاستعمار الذي لم يستثن، لغرض الحفاظ على هذه المصالح، إمكانية احتلال الأرض. قضى الفلسطينيون وقتهم، ولزمن طويل من هذه الفترة، محاولين تجاوز ونسيان الرعب الذي خلفته الحرب العالمية الأولى، ومحاولين أن يتأقلموا مع حقيقة استبدال أربعة قرون من الحكم العثماني المسلم بآخر مسيحي بريطاني. يذكر أن مقاومة الفلسطينيين لهذا الآخر كانت متزامنة مع مقاومتهم للاستيطان اليهودي الذي رأفت صدور وعد بلفور في فلسطين في العام ١٩١٧.

تتألف عائلة عمرو، العائلة التي ينتمي إليها سامي، من عدة فروع، وهذه الفروع كلها ترتد في الأصول إلى أجداد ينحدرون من الكرك في الأردن، البعض من أفراد هذه العائلة يدّعي أن الأجداد الأوائل جاءوا من مناطق الجزيرة العربية. ينحدر يحيي بن عبد الرحمن، والد سامي، من قرية دورا القريبة من الخليل، وفي الوقت الذي ولد فيه سامي حتى صار شابا كانت العائلة قد انتقلت من دورا، مع محافظتها على روابط عائلية هناك، إلى الخليل. توفي الوالد وسامي في الخامسة من عمره، وظل الأخير يعيش مع عائلته في الخليل إلى أن بلغ السابعة عشرة من عمره حيث انتقل للعيش في مدينة القدس لغرض العمل مع حكومة الانتداب البريطاني في مؤسسة النافي (NAAFI) (وهي دائرة توفر الخدمات الترفيهية والاستهلاكية لأفراد القوات المسلحة البريطانية في فلسطين). إنّ الانتقال إلى القدس التي لا تبعد كثيرا عن الخليل فتح لسامي نافذة على عالم مكتنز بالخبرات: أصبح يتواصل، وبشكل يومي، مع موظفين في حكومة الانتداب ومع زملاء عمله من الجنسين، ومع أجانب بريطانيين وغير بريطانيين، ومع أفراد في مجموعات مختلفة أخرى تعيش في عاصمة حكومة الانتداب – القدس. عندما بدأ سامي يعيش في القدس صار لزاما عليه أن يعتمد على نفسه في تدبير أموره الحياتية: استأجر، هناك، غرفا من أصحاب عقارات، وكتب في يومياته عن الفرق الواضح الذي شعر به في خضم ظرفه الجديد مقارنا ذلك بما كان يشعر به / يفهمه عندما كان يعيش في كنف العائلة.

تزخر اليوميات بتاريخ عائلة سامي وتوثق، بزخم، لصراعاتها. لقد تحقق غنى اليوميات في هذا الجانب من خلال توثيق الأفكار والمشاعر الخاصة بكاتب اليوميات وهو يتحدث عن الروابط

٨ تحمل يوميات سامي عمرو «مذكراتي في هذه الدنيا»، والعنوانان (معركة الحياة، بدأ النضال) وردا في المدخل الأول من المذكرات والذي يحمل تاريخ ٣٠-٤-١٩٤١.

٩ كل الاقتباسات من اليوميات نقلت كما هي دون تدخل في إعادة الصياغة التي تظهر ركيكة بحكم ثقافة منتجها، ودون تصحيح للأخطاء النحوية الكثيرة. المترجم.

العائلية التي حافظ عليها مع أفراد من عائلته. لقد تحقق هذا الغنى، كذلك، من خلال حديثه عن طبيعة العلاقات التي لاحظها بين أفراد آخرين من خارج عائلته. تحدث سامي كثيرا في اليوميات عن توجهات أخيه سعدي الذي قرر أن يلتحق بالجيش البريطاني وقتذاك، ومع ندرة الأدبيات التي تتناول موضوعة خدمة الفلسطينيين العرب في الجيش البريطاني، لا يستطيع أحد أن يخرج بمقولات أو إفادات لها طابع العموم حول ماهية هذه الخدمة؛ مع ذلك، توفر هذه اليوميات التفاصيل الدقيقة لحالة سعدي وللكيفية التي تعامل بها سامي مع الموضوع. لعل غياب الأدبيات حول موضوع انخراط العربي في صفوف الجيش البريطاني يعطي ليوميات سامي هذه حق فرض حضورها بقوة في هذا المضمار.

لأن سعدي لم يشرك أحدا حين قرر الانخراط في صفوف الجيش، ظهر سامي في يومياته حائرا من الحالة الشعورية التي كان بها سعدي حينذاك، والتي دفعته لاتخاذ مثل هذا القرار، وظل يكتب حول موضوع قرار أخيه بكثير من الانفعال. يقول سامي : « ولم أذكر فيما قبل أن أخي المسكين الذي ما غضبت عليه مرة ولكني أحزن عليه وأرثي له لأني أعلم أن عقله غير كامل أو يحتاج إلى تجارب أخرى كثيرة تجعله يدرك الصالح من الطالح. »[١٠] لقد تواصلت صدمة سامي من أخيه وماذا يمكن أن يكون قد عنى له، ولكثيرين من الشباب العرب الذين التحقوا بالجيش البريطاني، وضعُ الزّيّ العسكري البريطاني على بدنه. يقول سامي « لا يقدّر ما يقل من حرية بواسطة تلك البدلة التي هي الآن بمثابة القيد للأسير والسجين وسهم العبودية والخضوع للقوانين. »[١١] نحن لا نملك، ولا توفر اليوميات بالضرورة، وسيلة لفهم ما فكر به سعدي حول الانضمام إلى الجيش، ولم تظهر الحوارات مع سهيلة، أرملة سامي، سوى أن انضمام سعدي إلى الجيش كان بمثابة نزوة اعتقد معها أن خدمة الجيش أمر يدخل في باب الدعابة ليس إلا.[١٢] على عكس أخيه الأكبر سعدي، رأى سامي، المعروف بجدية يفتقر لها أخوه، أن لموضوع انخراط سعدي في الجيش صدى عظيما وهو، بدون شك، أبعد ما يكون عن الدعابة.

مع أن سامي تحدث عن فقدان الحرية مقرونا بارتداء الزيّ العسكري، نقرأ في اليوميات، لاحقا، أن خلع الزي ذاته قاد سعدي إلى غياهب السجن البريطاني. لقد جاءت حادثة السجن هذه بمثابة منبه تخلص معه سامي من سحر أوهامه في النظام القانوني البريطاني القائم في فلسطين، وفي حقيقة أن حكومة الانتداب عاقدة النية على أن تقود السكان المحليين باتجاه أن يحكموا أنفسهم ويعيشوا بحسب القانون. علم سامي أن سعدي في سنة خدمته الأولى في الجيش صار سجينا؛ الأمر الذي وصفه سامي بأنه « هدّ كياني وزلزل يقيني وعقيدتي بالعدل »،[١٣] وكتب في ١-١-١٩٤٣ أنه حكم على سعدي بالسجن لمدة ستة أشهر بسبب جريمة لم يرتكبها. جدير بالملاحظة، هنا، أن سامي في يومياته لم يتطرق أبدا لحديث يخص به لتفاصيل الجريمة أو طبيعتها.

يبدو أنه من المستبعد أن يكون كاتب اليوميات على غير علم بتفاصيل الجريمة التي اتُهم بها أخوه، فقد قالت زوجة سامي أن الأخير أخبرها بقصة حبس سعدي مباشرة بعد زواجهما. لعل

١٠ المذكرات، مدخل ١٩-١١-١٩٤١.
١١ المذكرات، نفس المدخل.
١٢ من مقابلة أجريت في كانون ثاني ٢٠٠٦ مع سهيلة أرملة سامي
١٣ المذكرات، مدخل ١٩-١١-١٩٤١.

فكرة كتابة مثل هذه الملاحظات حول تفاصيل الجريمة أكثر مما أراد أن يبوح به سامي وهو يكتب يومياته، وفضل أن تبقى طي الكتمان. لا يخفى أنه إذا قصد كاتب يوميات أن ينشر يومياته، يستطيع المرء أن يتوقع بعض الحذف من عيار إدانة سعدي على سبيل المثال. ذكرت سهيلة أرملة سامي، وبشكل صريح، أن سعدي ذهب للسجن بسبب تغيبه عن الخدمة العسكرية دون عذر رسمي ، وذكرت أن هذه التفاصيل نقلت إليها من قبل زوجها بعد زواجهما بوقت قصير – الوقت الذي توقف فيه سامي عن كتابة اليوميات، وأن سامي أوضح لها أنه عرف، في الحقيقة، سبب سجن أخيه. أضافت أرملة سامي، وحول ذات الموضوع، أن سعدي أُرسل إلى الخدمة العسكرية في مصر وأنه تعامل مع هذا الموضوع، تماما كما تعامل أساسا مع موضوع التحاقه بالجيش البريطاني، وكأنه ضرب من لهو ثم قرر أن يهرب من الخدمة هناك. خلع سعدي، وفقا لما قالته سهيلة أيضا، زيه العسكري وتركه على ضفاف النيل وتنكر بلباس فلاح مصري، وقفل عائدا إلى فلسطين حيث قبض عليه البريطانيون ووضعوه، كما يقول سامي هذه المرة، في السجن ثم حوكم ووجد مذنبا. يظهر من اليوميات أن سعدي الذي حكم عليه بالسجن مدة ستة أشهر قضى أربعة أشهر منها فقط ثم أرسل إلى مخيم عسكري في القدس ومن هناك أعيد ثانية إلى مصر، ويظهر من اليوميات أن إرجاع سعدي مرغما إلى مصر زرع بداخل الأخير كثيرا من الرعب.[١٤]

في يومية تحمل ١٥ نوفمبر ١٩٤٢، وعلى شكل رسالة موجهة إلى سعدي الذي لم يقرأها في أغلب الظن، يعبّر سامي عن عمق محبته لأخيه وعن ثقته بأنه سيعود يوما وسينعم الجميع بلقاء عائلي مبارك.[١٥] برغم كل الحزن الذي يعبر عنه سامي في يومياته، ودرجة الغموض التي يشير إليها في ختام رسالته بخصوص ما حدث لأخيه، ظل سامي يشجع أخاه كي يبقى صلبا ويتجاوز الظلم الذي وقع عليه. يبدو أن علاقة سامي بأخيه سعدي، الذي أحبه دون شك والذي حاول مساعدته بكل السبل الممكنة، هي علاقة على جانب من التعقيد؛ فبعد مرور خمسة أشهر على انضمام سعدي إلى الجيش، وفي وقت كان فيه الأخوان يعيشان بنفس الشقة، أشار سامي إلى أنهما، وإن كانا يعيشان تحت سقف واحد، كانا يعيشان في عالمين مختلفين. يكتب سامي تعليقا على هذه الحال: « إني وحيد ذلك لأن أحدا من الناس لا ينصحني أو يجلس بجواري يطارحني الأسئلة لأجيبه عنها أو أسأله فيجيب. نعم إن لي أخ أعيش معه تحت سقف واحد ويجمعنا عمل واحد ولكننا في عالمين مبتعدين كل الابتعاد عن بعضنا روحيا ومعنويا.»[١٦] يظهر أن هذه الفرقة الروحية والمعنوية جعلت سامي متألما إلى حد بعيد، فقد كان يبحث عن توجيه من أحد في وقت كان سعدي الذي يكبره سنا ويعيش معه لا يوفر له شيئا من ذلك. « عليّ أن أتحمل هذه الوحدة القاسية، »[١٧] عبارة جاءت في نهاية المدخل تحكي حقيقة ما كان يشعر به سامي بهذا الخصوص. في سياق الأخوة والوحدة هذا تقول سهيلة أن أسعد، وهو الأخ الأكبر سنا، لم يقدم لأخيه الصغير سامي شيئا، وتذكر أن زوجها، الأصغر سنا بين الذكور، هو من التفت دون غيره لمصالح العائلة،

١٤ المذكرات، ١٢–٥–١٩٤٣.

١٥ لا يوجد مع أي فرد من أفراد العائلة رسالة يمكن أن يكون سامي قد كتبها، قد يكون سامي وببساطة كتب الرسالة في يومياته فقط.

١٦ المذكرات، مدخل ٦–٤–١٩٤٢

١٧ المذكرات، نفس المدخل.

وهو الذي اعتنى جيدا بأمه التي تقدمت بها السن وصارت تحتاج إلى رعاية متواصلة، وهو الذي حضن هذه الأم لاحقا حين صارت تعيش معه ومع زوجته في بيتهما.

تواصل، وبشكل عميق، تأثير حادثة السجن على كاتب المذكرات لشهور عديدة بعد إطلاق سراح سعدي، وقد تحدث سامي عن هذه الفترة أكثر من مرة في مداخل يومياته التي كتبت بعد خروج أخيه من السجن بأشهر عدة. عن الزيارات وعن «سجن الطالبية المشهور» الذي يقع في حي من أحياء مدينة القدس، كتب سامي: [١٨]

> وعندما أصل إلى السجن أقف ببابه مع الواقفين أنتظر حتى يأذن الشاويش لنا بالدخول، فنقف ساعة أو نصف ساعة تحت وهج الشمس ننتظر بفروغ صبر إلى أن يأذنوا أخيرا ويدخلونا مهددين من يدخل معه شيئا من السجائر أو الطعام بعدم السماح له من رؤية سجينه مرة ثانية أخرى، ثم يقودنا إلى مكان قد صفّت على جوانبه المقاعد المستطيلة فيجلس الزائرون مع السجين الذي لا يقرّ له قرار يلتفت يمنة ويسره خوفا من أن يراه أو يسمعه الشاويش، فنتحدث وكأننا لا نتحدث ويحدثنا السجين عن المعاملة القاسية التي يلقاها والأعمال الشاقة التي يعاني أتعابها ثم يلحّ في أسئلته عن أصحابه في الخارج ويرجو أن يرسلهم له في الأسبوع المقبل. وبعد ربع ساعة أو أكثر قليلا يصيح الشاويش بأن قد انتهى موعد الزيارة فنودعهم ونتركهم حيث يقادوا لمواصلة العمل....[١٩]

لم تهز زيارات السجن هذه سامي فحسب، بل وصف مدى الحزن الذي كانت تشعر به الوالدة حين تقوم بزيارة ابنها السجين الذي لم يتوان يوما، بحسب أرملة سامي، في جلب المتاعب لأمه. واضح أن زياراتها للسجن كانت تؤثر فيها كثيرا، فقد كانت تبكي طوال وقت الزيارة وكانت تتعلق بسعدي وكأنها تريد أن تعيده معها إلى الخليل، المدينة التي لها تأثير جلي على عائلة عمرو وتظهر في اليوميات كنقطة مرجعية تقارن بها كل أنحاء فلسطين وتذكّر باستمرارية الحياة العائلية للفلسطينيين.

في المدينة ذاتها وفي عام ١٩٤٢، السنة التي وضعت فيه أخت سامي الصغيرة مولودها الأول، كتب سامي مدخلا من مداخل يومياته موضحا فيه صراعه مع التغيير والتقليد.[٢٠] المولود الذكر يعيّن مرحلة مفصلية في حياة عائلته، في الحقيقة في حياة أي عائلة؛ ذلك لأنها، أي المرحلة، تعبر عن المستقبل وترسم ملامحه. أصبحت أخت سامي أمَ سلطان وأصبح زوج اخته أبا سلطان، وأصبحت التسمية مرجعية ثابتة من ناحية علاقة الطفل الذكر الأكبر بالوالدين وعلاقة الوالدين بالذكر الأكبر. مولد هذا الطفل، وهو رمز الجيل الجديد والمستقبل، جعل سامي يفكر مليا فيما

١٨ ليس من الواضح بالضبط ما هو سر شهرة سجن الطالبية هذا، ربما لأنه المكان الذي كان يحتجز فيه الفارون من العسكرية، أو قد يكون مهما لقطاع من السكان ينتمي إليه سامي عمرو.

١٩ المذكرات، مدخل ٢١-٥-١٩٤٣.

٢٠ المذكرات، ١٨-١١-١٩٤٢.

يعنيه الاسم عندما يصير الحديث حول هوية الشخص. كتب سامي في السياق «ليس الاسم إلا صوت خاص تتفق عليه العائلة المؤلفة من الوالد والوالدة ويطلقون هذا الصوت أو المقطع الخاص فيميزونه بذلك الذي يسمي عن غيره من أخوته لتسهل المناداة أو الدعوة.»[٢١] يضيف سامي: « كان الناس في الأجيال الماضية لا يهتمون بالاسم أو التفنن فيه فكانوا يدعون المولود باسم النبي الكريم محمد صلوات الله عليه أو بأسماء الرسل» المذكورين في القرآن الكريم، لكن سامي يلحظ أن الوقت قد تغير في زمانه وصار الاسم « في نظر العائلات الراقية خاصة والعائلات المتوسطة عامة شيئا جوهريا في حياة الأفراد، فالاسم الجميل له حقه كما أن للوجه الوسيم حق آخر.»[٢٢] لم يكتف سامي بالحديث عن الجيل الجديد والطبقات الاجتماعية والمستقبل في معرض حديثه عن الأسماء، بل تحدث عن الموضوع في سياق آخر هو التقدم.» العالم،» بحسب سامي « في تقدم طردي مع مرور الأيام وكذلك يقترب الغرب من الشرق ،»[٢٣] وهو مدرك، وقد صارت تسمية الطفل بالنسبة له موضوعا ذا علاقة بالتقدم مقابل التقليد، حتميةَ صيرورة التقدم في عالم سيشهد اندثار « التقاليد القديمة الفاسدة ويبقى منها ما تستحسنه المدنية المظفرة.»[٢٤]

لا يمكن فهم موضوعة الاسم هذه إلا إذا أدرك المرء، أولا، أن عزت زوج أخت سامي هو ابن لقبيلة بدوية كبيرة من صحراء النقب، وأنه أراد، ثانيا، بحسب ما نقلته لي رقية أم سلطان، أن يتزوج من فتاة مدينية وجاء إلى الخليل بغية تحقيق ذلك.[٢٥] ربما عاين عزت مظاهر تمدن في البيئة الخليلية كما يشير سامي، وظل بعد زواجه، رغم طبيعة عمله التي فرضت عليه نوعا من تنقل متواصل، يعيش في مدينة الخليل. ضحكت أم سلطان، وقد بلغت التاسعة والسبعين من عمرها، ضحكة مجلجلة عندما أعيدت لذاكرتها قصة تسمية ابنها البكر، سلطان، وصارت تسترجع إلى أي حد مقت سامي الاسم وإلى أي حد شعر أبو سلطان بالانزعاج عندما أوصل له سامي رسالة بهذا الخصوص صار أن لاقت طريقها إلى المذكرات. جليّ أن هذا الموضوع ومن وجهة نظر سامي يؤثر على المجتمع بشكل عام، فهو يؤمن أن الفرد يجب أن ينظر إلى الأمام وأن لا يركن إلى تقاليد الماضي المنبتة عن عالمنا الحديث الذي نحيا. إضافة إلى تصادم القيم هذا – التمسك بالتقاليد أو تبني التقدم – كان هناك وجود لصراع آخر من نوعه هو الصراع القائم بين المدينة والبادية، بين سكان المدينة وبين البدو الذين انسلخ عنهم عزت عندما تزوج وانتقل للعيش في الخليل. يقول سامي في نبرة تحدٍّ مؤكدا حتمية التقدم:

> وسوف تندرج المدنية في الأماكن المقفرة من المدينة نفسها ويتدرج البدو من السكنى في بيوت الشعر ويصبحون حضرا يسكنون القصور ثم يتدرجوا في الرقيّ فيشتركوا في إدارة المصانع والبناء والأعمال الكتابية. ويتركون تلك الصحاري الشاسعة التي عاش فيها آباؤهم على

٢١ المذكرات، نفس المدخل.
٢٢ المذكرات، نفس الدخل.
٢٣ المذكرات، نفس المدخل.
٢٤ المذكرات نفس المدخل.
٢٥ في مقابلة أجريت مع أم سلطان في ١٢– ٢٠٠٥.

مرور السنين يقاسون شظف العيش والجوع والعطش غير مفكرين أن هناك حياة أطيب وأهنأ في المدن أو على الأقل في القرى.»[٢٦]

لم ينتقل عزت إلى المدينة فحسب، ولكنه شغل وظيفة مسّاح في الحكومة البريطانية أيضا وأثبت، بذلك، مقولات سامي حول حتمية التطور والتغير بين البدو. رغم فلسفة سامي لموضوع التقليد / التقدم فقد تمنى الأخير على عزت أن لا يأخذ أقواله أو ثرثرته على محمل الجد، ولكن عليه، مع ذلك، أن يحتفظ بهذه الكلمات (في الأصل كتبت على شكل رسالة وسلمت لعزت) لابنه الصغير سلطان « للغلام الذي أنا الآن خاله.»[٢٧] لقد أمل سامي الذي لم يحرز تقدما مع الوالد أن يقرأ الصغير الرسالة مستقبلا ويستفيد منها، الأمر الذي لم يحدث طبعا لأن عزت مزّق الرسالة بعد أن انتهى من قراءتها.[٢٨]

سمات التقليد والتغيير هذه ظهور آخر في مدخل غير مؤرخ في اليوميات حمل عنوان « لو كنت زعيما عربيا » يقارع فيه سامي واقع القرية العربية في جنوب فلسطين، وفيه تظهر رغبة سامي بتحقق التقدم في فلسطين[٢٩] حيث يقول: « ربما تتحقق آمالي إذا أنهيت كتابي (اليوميات) ».[٣٠] يتخيل سامي نفسه في هذا المدخل « زعيما من زعماء القرى العربية في الجنوب » ويشبه نفسه «بالرسول محمد العربي حتى ينهض بقومه دينيا وسياسيا أو ليس للمصلح الدنيوي.»[٣١] نعرف الآن أن سامي عاش كل عمره في عائلة جعلت من المدينة، وإن حافظت على رباط مع قريتها دورا، مسكنا لها؛ وعليه لا تظهر في اليوميات إشارة أخرى تنم عن رغبة سامي في أن يصبح زعيماً أو حتى أن يعيش في القرية. مع ذلك، يظهر أن لدى سامي رؤية واضحة في ما يجب أن تكون عليه الحياة في القرية. حين تخيل قيادة القرية المجهولة الاسم رأى سامي نفسه « واقفا بين جموع القويين أحثهم على التقدم وترك العصبيات المضرة بوحدتهم والمفسّخة لكيانهم.»[٣٢] يتصور سامي، ولغرض تحقق التقدم أننا يجب أن « نمد الطرقات في القرية ونبني البيوت الصحية ونهدم القديمة الموبوءة، نحرق الملابس الطويلة الفضفاضة ونلبس أخرى بسيطة سليمة الذوق، » ويواصل الحديث عن « الأقدام العارية التي تشقى بالمسير على الحصى »[٣٣] وعن رغبته في أن يلبس الأحذية لجميع أهل البلدة. لقد رأى سامي أن الأهمية لا تكمن فقط في تغيير العادات والبيئة المحيطة بالقرويين، ولكن أيضا بتحسين كيفية عملهم. لأنه أراد هذا بشدة يقول سامي في كيفية تحقيق ذلك مستخدما ضمير المتكلم ومواصلا فعل التخيّل: « جمعت التبرعات وأحضرت التراكتورات

٢٦ المذكرات، مدخل ١٨-١١-١٩٤٢.
٢٧ المذكرات، نفس المدخل.
٢٨ يظهر أن جزءا من يوميات سامي كتب على أوراق منفصلة ثم نسخت لاحقا في دفتر اليوميات. ليس واضحا ما إذا كانت هذه الرسالة قد كتبت في اليوميات منذ البداية أم أعاد سامي كتابتها في اليوميات لغرض توثيق كلماته حول الموضوع بعد أن مزق عزت الرسالة.
٢٩ أقدّر أن هذا المدخل كتب بين ٢٢/٢٦- ١١- ١٩٤٣.
٣٠ المذكرات، نفس المدخل.
٣١ المذكرات، نفس المدخل.
٣٢ المذكرات، نفس المدخل.
٣٣ المذكرات، نفس المدخل.

لحرث الأراضي الصالحة. حفرت الآبار، ركبت المضخات لسحب الماء»[٣٤] حتى يتمكن الفلاحون من تدبر أراضيهم بشكل أفضل. لقد تنبه سامي كذلك لضرورة تجميل الأرض، يقول بضمير المتكلم أيضا «غرست الأشجار على جوانب الشوارع وعلى قمم الجبال العارية،»[٣٥] ثم يواصل قائلا بأن الأمر الذي يمكن أن يحوّل القرية إلى شيء عصري متقدم، أو شيء على صلة بالمستقبل هو إيجاد مكتب للتجارة لمن أراد أن يبيع محاصيله، ثم فتح المصانع وتوفير التعليم المهني نحو الخياطة والحلاقة حيث تستطيع البنات أن تعمل.[٣٦]

في سياق القول حول مراكز الحياكة، تحدثت رقية، أصغر أخوات سامي، عن صفوف لتعليم الخياطة في الخليل؛ الأمر الذي يمكن أن يقرأ باعتباره، إلى جانب إملاءات العيش تحت سلطة الانتداب البريطاني، المحفز نحو تصور سامي لطرائق تطوير القرية باتجاه حياة أكثر ازدهارا وصحة وإنتاجا. وإن ظهر خطاب سامي الذي قارب فيه الحياة في القرية خطابا أقرب إلى خطاب المستعمر أو خطاب الخبير في شؤون تخطيط المدن، لكن يظل من الواضح أن العرب الفلسطينيين، وسامي واحد منهم، أدركوا الفرق بين نمط الحياة المديني وبين نمط الحياة القروي. يبقى أن نقول بأن درجة تجذّر الدعوة إلى التغيير والتقدم في المجتمع الفلسطيني تظل مجالا خصبا لبحوث مستقبلية. لا شك أن مقولات مثل التقدم والتغيير تأتي في سياق خطاب استعماري تكتيكي، لكن الفلسطينيين الذين بالكاد استخدموا الآلات الزراعية الحديثة رأوا، وبدون شك، الصهاينة في فلسطين وهم يستخدمون الآلات الميكانيكية في الزراعة.

لقد أدرك سامي أثر التغيير الذي أحدثه الصهاينة في فلسطين في مجالات الزراعة والاقتصاد والحياة الاجتماعية، لكنه، ومع ذلك، ظل يعي أن التغيير الحقيقي يكمن دائما في عالم السياسة. رأى سامي أن ثنائية التقدم والتغيير أمر إيجابي يصب في مصلحة تطور البلد، لكنه ظل يعي كذلك أن التخلي عن الأرض لمصلحة الصهيوني أمر لا يمكن السماح به. في مدخل من مداخل يومياته، يعلّق سامي على ما يراه من صراع حوله بين اليهود والعرب في فلسطين متنبئا بمكنونات الغد: «فلسطين كقطعة من الأرض عليها رجلين كل منهما يقول أنها ملكه. ويمكثا يتشاجران حتى يتطور شجارهما إلى صراع يودي بحياة أضعفها ثم يعيش القوي على أنقاض الضعيف.»[٣٧] أدرك سامي ابن التاسعة عشرة والذي يعايش الحرب العالمية الثانية التي زادت من تعقد الظروف التي خلقها وعد بلفور والانتداب البريطاني في فلسطين، أدرك، وبشكل جيد، أن لليهود الصهاينة في فلسطين طموحا كبيرا بأخذ البلد وإحضار إخوتهم اليهود من أوروبا ليحلوا محل السكان العرب في فلسطين. كتب سامي عن إمكانية أن يشل هذا السيناريو «حركة [الفلسطيني في] الشرق الأوسط ويغلق الباب الوحيد والأعظم الذي منه يستورد عيشه وحياته،»[٣٨] وأشار إلى تطلع الصهاينة في فلسطين إلى «ما حواليها من البلاد العربية ليجعلوها سوقا لصناعتهم وتجارتهم، فتموت بذلك تجارة العرب وتكسد».[٣٩] كل الصعوبات التي يواجهها الفلسطينيون، وفي وقت يضع فيه الصهاينة

٣٤ المذكرات، نفس المدخل.
٣٥ المذكرات، نفس المدخل.
٣٦ انظر المذكرات، نفس المدخل.
٣٧ المذكرات، مدخل ١٥-٣-١٩٤٣.
٣٨ المذكرات، نفس المدخل.
٣٩ المذكرات، نفس المدخل.

يدهم على الأرض، ستؤدي إلى خسارة البلد «سيربحه بدلهم اليهود»،[٤٠] وستجعل العرب يرحلون «من فلسطين ويتطلعون للهجرة إلى الخارج (لا سمح الله) إن لهم [لليهود]، يقول سامي، «حجج سقيمة لا تملا الرأس،»[٤١] ويدعون أن للعرب «بلادا غير فلسطين فليذهبوا إليها.»[٤٢] يقول لسان الفلسطينيين «إننا لا نترك بلادنا لإرضاء شعورهم وتسهيل راحتهم،»[٤٣] ثم يضيف «لقد دخلنا فلسطين بالسيف (لعله يلمح هنا إلى الفتح الإسلامي) وإذا خرجنا منها لا سمح الله فلن نتركها إلا بالسيف وبعد بذل آخر نسمة من أنفاسنا في سبيل إنقاذها.»[٤٤].

مع أن سامي كتب بانفعال عن الصراع المتنامي بين اليهود والعرب في فلسطين الواقعة وقتذاك تحت الانتداب البريطاني، إلا أن هذا الصراع لم يحد من تطلعات سامي الوظيفية في حكومة الانتداب، ولا يبدو أنه أثر سلبا على تفاعله مع زملائه الموظفين ومع المسؤولين عنه. لقد كتب سامي حول محادثة ساخنة قرر أن يخوضها مع مسؤوله المباشر في العمل وهو رجل يوناني ظن سامي أنه يمنع عنه الترقية. لقد حصل سامي على ترقية بالفعل بعد مضي وقت في منصبه الأول، لكن لم يظهر أنه كان مقتنعا بالبقاء في مؤسسة نافي. عندما بدأ سامي بالبحث عن فرص خارج الدائرة التي كان يعمل بها لسنوات عديدة، وفرت له الحرب التي كانت دائرة الفرصةَ التي كان يحتاجها عندما عُيّن في مدرسة للتدريب المهني مختصة بتعليم مهنة اللحام. يظهر أنه أنشأ، في وظيفته الجديدة هذه، علاقات قوية مع بعض الشباب، لكن علاقته مع الجنس الآخر سببت له كثيرا من الإرباك.

إضافة إلى الصراع السياسي في المنطقة وانعكاسات ذلك على شخصية سامي، يدرك القارئ عند مقاربة اليوميات عمق الصراع الداخلي عند سامي بخصوص علاقته مع النساء. كان يشعر بالخجل عندما يخاطب البنات بشكل عام، والحواجز التي تطاولت في المجتمع المسلم بين الشباب والبنات دفعت سامي لأن يسأل: كيف يمكن له في حقيقة الأمر أن يخاطب فتاة مسلمة؟.[٤٥] يكتب سامي في ٦-٤-١٩٤٢ أنه «مهما فعلت فلن أنل شيئا كثيرا أو قليلا من قبل تلكم الفتيات كما أني لا أجرؤ أن أحادثهم بكلمة لأنه مسلمات وإن كلمتهن فيستحيل وأنا خجول الشديد الخجل أن أفاتحهن بما في نفسي من غرام إذا كان في قلبي مثل ذلك.»[٤٦] من استطاع سامي أن يحادثهن بسهولة هن بنات من أفراد عائلته وزميلات له في العمل من أصل يوناني أو يهودي أو خلافه. في مداخل قليلة من المذكرات، كتب سامي عن زميلة له في العمل تدعى تسيبورا وهي فتاة يهودية واضح أنه أحبها وشعر بالازدراء حين أقدمت على الزواج من غيره.[٤٧] قبل حادثة الزواج هذه، قام بدعوة عدد من البنات، ولم يستثن تسيبورا التي لم تأت، لزيارة منطقة العائلة في القرية للتنزه. في ذلك اليوم كان ابن عم سامي وأخوه هناك في القرية وكان عمه أيضا، وكتب سامي بكثير من

٤٠ المذكرات، نفس المدخل.
٤١ المذكرات، نفس المدخل.
٤٢ المذكرات، نفس المدخل.
٤٣ المذكرات، نفس المدخل.
٤٤ المذكرات، نفس المدخل.
٤٥ المذكرات، مدخل ٦-٤-١٩٤٢.
٤٦ المذكرات، نفس المدخل.
٤٧ ذكر سامي تسيبورا بعد أن علم بزواجها في المدخلين ١٠-٨-١٩٤٢ و ٧-٩-١٩٤٢.

التركيز عن الفتيات اللواتي جئن لهذه النزهة وطرح السؤال التالي: لماذا لم تأت تسيبورا؟ لم يتلق سامي جوابا من الفتيات الموجودات على سؤاله هذا، ويروي أقرباء سامي أن النزهة في وادي ننقر الواقع بجانب دورا جعلت سامي، الذي نسي غياب تسيبورا وحوّل اهتمامه نحو فتاة أخرى هي لوبا، يتدفق وهو يصف جغرافية المكان وطوبغرافيته ووفرة أشجار التفاح والمشمش والبرقوق واللوز فيه. في سياق الحديث عن المكان هذا استمع سامي للوبا التي «وصفته... بالجنة الصغيرة ... بلطفها وحنانها،»[٤٨] ووجد نفسه مأخوذا بفرصة التواصل مع لوبا، ومشى هو وهي وحدهما في الوادي وقدم لها يده وهي تصعد وتهبط السلاسل دون أن يتكلمان. في تقليب مجريات اليوم في عاقلته، وبالمقارنة مع الفتيات اللواتي شاهدهن وشاهدنه من خلف إطارات نوافذ البيت، ومع كل خجله ومع كل الظروف المحيطة التي تمنعه من الاستمتاع بأجواء متراخية ومريحة وعاطفية، تساءل سامي إن كان قد قضى وقتا طيبا، وفي إجابة على سؤاله قال: «أظننا سررنا! سررنا جدا... نعم كثيرا.»[٤٩] مع أن الصراع كان يتنامى من حوله وفي كل مكان، إن كان بسبب الحرب العالمية الثانية التي تستعر خارج فلسطين، أو بسبب الصراع القومي الذي يمكن أن يقود لحرب في فلسطين بعد سنوات قليلة، لم يتوان سامي من كتابة ملاحظاته حول أنساق التصرف الشخصي وخصوصا نسقه هو بما في ذلك شكوكه تردده بخصوص اتخاذ الزوجة المناسبة.

أن سامي واجه عدة تحديات خلال الفترة التي كتب فيها يومياته. من هذه التحديات: سجن أخيه، وبيع ممتلكات العائلة، والاعتناء بوالدته، وتطوير وضعه الوظيفي، وإيجاد الزوجة المناسبة. ظل سامي ينظر إلى حياته وكأنها رحلة صراعات. في الحقيقة، يضع سامي نفسه قيودا على فهمنا لحياته هو عندما قرر أن يتوقف عن كتابة يومياته معللا ذلك بعبارة لا تتجاوز الكلمة الواحدة.. الزواج. لو أن كتابة اليوميات، كما يقترح فيليب لوجين، تزدهر مع المشاكل الشخصية أو أي معاناة من نوع آخر، يصعب على الفرد أن يفهم لماذا توقف سامي عن فعل الكتابة بعد أن مارس كتابة اليوميات لمدة أربع سنوات. ربما شعر سامي، وبرغم كل التحديات التي واجهها بعد الزواج وهي بالضرورة كثيرة نحو (ضياع فلسطين ١٩٤٨/١٩٦٧، وتشتت العائلة وإعادة انتشارها خارج فلسطين التاريخية ومولد وتربية أبنائه)، ربما شعر أن الصراع قدوصل الى منحى جديد وعليه أن يتوقف عن الكتابة. يمكن أن يقول المرء أن الصراعات تزايدت عليه وتركت له وقتا قليلا حتى يتفكر وحتى يكتب. لم توفر أرملة سامي جوابا لحقيقة توقف سامي عن الكتابة في نفس الوقت الذي اقترن بها، لكن هناك شيئا مؤكدا حول هذه اليوميات: احتاج سامي أن يفكر في الأحداث التي مرّ بها في حياته خلال تلك الفترة التاريخية ويوثقها، ومن خلال فعله هذا نجد أنفسنا في موقع أفضل لفهم التاريخ الاجتماعي والسياسي لفلسطين تحت الانتداب البريطاني؛ ذلك لأن هذه اليوميات توفّر فرصة لمقاربة الحقبة من زاوية تجربة شاب وفئة اجتماعية لم تتوفر لنا امثالها في تلك الفترة.

٤٨ المذكرات، المدخل ١٠-٨-١٩٤٢.

٤٩ المذكرات، نفس المدخل.